الإسلام والحضارة

بقلم الأستاذ

أحمد عبد الرحيم السايح

معيد بقسم العقيدة والفلسفة

مفهوم كلمة الحضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما فى تاريخ الحياة العربية والمفهوم الأصيل لكلمة الحضارة فى اللغة العربية أنها : تعنى حياة الحضر والإقامة الثابتة فى المدن والقرى ، وعكسها (البداوة) وهى حياة التنقل فى البادية ، ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر ، منذ كانت بادية ومنذ كان حضر .

ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس من الدراسة الواعية والتسجيل والتحليل العلمى ، هو عبد الرحمن بن خلدون ، بل أن هذا العالم هو أول من عالج شئون الحضارة العربية بطريقة علمية تحليلية .

على أنه إذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة والذى يناقض البداوة ، فينشىء القرى والأمصار ويضفى على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية .

إذا كان ابن خلدون بلور هذا المعنى التاريخى واعتبر الحضارة غاية العمران، فإن مفهوم الحضارة فى عصرنا قد امتد إلى ألوان من المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون فى عصره ، وفى بيئته العربيـــة فى انتقالها الاجتماعى والسياسى والثقافى والمدنى من البادية إلى الحضر .

ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ (مدنى) بمعنى (اجتماعى) فإن مفهوما آخر ظهر واتصل بها ، وأصبح الآن يعرف بالمدنية بل أن ابن خلدون إذاته كان سباقا أيضاً فى هذا المجال اللفظى فاستعمل صيغة التمدن وكان يعنى بها (التحضر) .

على أن تلك المفاهيم اللغوية إنما نشأت فى بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية . ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية إلا فى جهات قليلة جداً خارج عالمنا العربى ، ولذلك فإن لفظ الحضارة فى مفهومه العالمى ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة ، قد أصبح أكثر اتساعا مما كان يدل عليه فى مفهومه اللغوى التقليدى .. وإذا كان أصل الحضارة : الإقامة فى الحضر . فإن المعاجم اللغوية الحديثة ، ترى أن الحضارة هى الرقى العلمى ، والفنى ، والأدبى ، والاجتماعى فى الحضر . وبعبارة أخرى أكثر شمولا . هى : الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر ، ومجموع الحياة فى أنماطها المادية والمعنوية ، ولهذا كانت الحضارة هى : الخطة العريضة ـ كما وكيفا ـ التى يسير فيها تاريخ كل أمة من الأمم ، ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة ، ومنها الأطوار الحضارية الكبرى ، التى تصور انتقال الإنسان أو الجماعات ، من مرحلة إلى مرحلة .

والحضارة باختصار شديد هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلفها التاريخ والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلا على القدرات الذهنية المميزة ، وتعبيرا عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثله . ولاشك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات ، وتشكل المظاهر المعنوية فى صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف ، ومجموع ماينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد فى الآثار والمعامل وأسلوب الحياة وآداب المعاش اليومى وتقاليد المجتمع فى التقارب والتفاهم والتعايش .

والمدنية هى الوسائل والأدوات المادية التى يستعين بها الإنسان على

تحقيق حضارته وعلى العديد من الأشياء والأدوات المادية التي تعين الإنسان على التقدم في مضمار الحضارة وإذا كانت الحضارة وهي الإبداع في مجالات الفنون والمعارف والعلوم، فالمدنية هي السبيل إلى تذليل الصعاب الحضارية والأدوات المادية التي تبلغ بها الحضارة مستوى الابداع والتقدم . وكلما سيطرت الحضارة على وسائلها امكنها أن تحقق ألوانا من الفن والابداع الذي تسجله الحضارة في جملة مظاهرها المعنوية الخلاقة . وقد تؤدي الماديات المختلفة إلى رفع مستوى التقدم الحضاري.

وقد تؤدي إلى تخلفه وانحداره . والذكاء الانساني في مجال استخدام الماديات هو الحكم في توجيه هذه الماديات فإما أن يسير بها سيرا حثيثاً نحو الابداع والتألق والتقـــدم أو أن يهبط بها إلى مجال العبث والفساد والتدهور ، وإما أن تسيطر القيم الروحية العالية على هذا الذكاء فتحدد مساره وتربطه بأهداف إنسانية عالية .

ولئن كان الاسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الإنسانية، فإن الواقع يبين للباحث والمفكر ، والدارس ، أن الحضارة الإسلامية استمدت كل مقوماتها وعناصر وجودها ، وأسباب نمائها وازدهارها من الإسلام ذاته ،، والإسلام كان ولا يزال دين الحضارة والإنسانية ، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة ودين معاملة وأنه أنشأ لوناً من الحضارة ، عرف باسمه ، وهو الحضارة الاسلامية . .

وقد قامت الحضارة الاسلامية ، على دعائم أساسية ، جعلت منها حضارة عالمية متميزة ، وفريدة في تاريخ البشرية ،، ومن ذلك ،،

أولا :ـ أن الاسلام قد انطوى على طاقة روحية ، جعلت منه قوة فاعلة ، والشيء المهم في هذه القوة الفاعلة . أنها كانت أصلا جذرياً يمس كل الأوضاع في حياة الناس .

ثانياً : ـ أن الاسلام كان دين دعوة ،، وفكرة الدعوة فى الاسلام ، قد واتتها ظروف الانتشار فى النطاق العالمى ، وفى ظلال الدعوة المستمرة تمكن الاسلام من نشر طابعه الحضارى ، كعقيدة للحياة ، وأن يصبح فى أقل من ربع قرن ، مقوما أساسياً من مقومات الحضارة الانسانية .

ثالثاً : ـ كان الاسلام ديناً سهلا غير معقد ، ولا مركب فى عقيدته ، وكان فى الوقت ذاته ديناً مباشرا ، يتصل فيه الانسان بخالقه دون وساطة .

« وقال ربكم أدعونى استجب لكم » .

« وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب » .

ولا نجد عقيدة تطلب من الانسان شهادة أبسط من شهادة الاسلام على عمقها وعظمتها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، عبارة سهلة رائقة ،، تقف بالعاقل على عتبة الدخول فى الاسلام ، موقفا سهلا. والمقوم الأصيل فى هذه البساطة . أن القرآن الكريم هو الوعاء الأساسى للعقيدة كلها .

رابعا : ـ كان الاسلام دينا رحبا ، يدعوا إلى سبيل العقل ، فى حدود أصول العقيدة كما يدعو إلى سبيل الضمير ، والحق ،، ومن هنا كانت الدعوة إلى النظر ، وإلى المعرفة . أساسا من أسس الدعوة الاسلامية وكان التفتح البصير مفتاح الدعوة للحضارة .

والاسلام فى رحابته الحضارية ، استطاع أن يمتص ألوان الحضارات فى البلاد التى أوقد فيها قناديل الضياء وأن يسبغ عليها طابعا إسلاميا شاملا .

خامسا : ـ البيئة بعواملها المحلية ، وموقعها الجغرافى ، قد ساعدت على إعطاء الحضارة الاسلامية ، ما كان لها من طابع ، ومن مكانة .

سادســـا : — القرآن الكريم ذاته . وذلك . أن القرآن كان أعظم ما عرفته الانسانية فى تاريخها الممتد الطويل . . وقد تضمن القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الانسانى السليم . تنشده الانسانية فتجد فيه مبتغاها من التشريعات الفردية والعلائق الأسرية ، والمعاملات الاقتصادية والحربية ، والقوانين المدنية ، والانظمة الدولية ،وبعبارة أوجز . . تجد فيه الأمة كل ما تحتاج إليه فى حياتها العامة والخاصة والدين والدنيا .

سابعـــا : — اللغة العربية نفسها كانت دعامة من دعائم الحضارة الإسلامية وذلك لأنها أعرق اللغات منبتا وأعزها جانبا . وأقواها جلادة وأعزها مادة وأدقها تصويرا لما يقع تحت الحس وتعبيرا عما يجول فى النفس .

وعندها من المرونة والقدرة على الاشتقاق والقبول للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب . ما يمكنها من الاستمرار فى عطائها ، نزل القرآن بلسانها فجعلها أكثر رسوخا وأشد بنيانا . وأقوى استقرارا ، وبفضل القرآن صارت العربية أبعد اللغات مدى ، وأوسعها أفقا ، وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذى تعيشه الانسانية واستطاعت العربية فى ظل عالمية الاسلام ، أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وترتقى حتى تصل أرقى اختلاجات النفس ، وليس هناك معنى من المعانى ، ولا فكر من الأفكار . ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية علمية من النظريات ، تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف والكلمات ، وتجسيده داخل الكلمات .

ثامناً : — وبجانب هذا وذاك ، كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية ، تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الإسلام ، ثم بالعنصر البشرى ، والتكوين السكانى ، فأما عن العصر ، فقد كان الاسلام ختام الأديان السماوية ، وكان

الاسلام بذلك رباطا لها من الناحية التاريخية ، كما كان فى الوقت ذاته تصحيحا لها ، لما أصابها من تحريف الفلاسفة والوثنيين .

ولقد كان هذا كله ، قوة دفع الفكر الاسلامى ، وما اتصل به من حضارة ومن هنا انطوى التفاعل الاسلامى على قوة غلبت كل التحديات الجاهلية فانتشر طابع الحضارة الاسلامية على فعالية لم يعرف لها مثيل فى تاريخ الإنسانية .

تاسعـــاً : — ومما يذكر أن توسيخ معالم الحضارة الاسلامية ، قد تضاعف بفعل مقوم انسانى آخر . . وهو تنوع السلالات التى دخلت فى الإسلام ، ثم هناك ظاهرة أخرى ترتبت على كل هذه الجوانب والعوامل ، وهى ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمنى فى الحضارة الإسلامية .

ومن وراء كل ذلك هناك الإيمان بالله فهو القوة الدافعة الموجهة التى تسند الضعيف من أن يسقط ، وتمسك القوى من أن يجمح وتعصم الغالب من أن يطغى ، وتمنع المغلوب من أن ييأس .

ولئن كان الاسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الانسانية حيث تقديس حرية الفكر ، واعزاز حرية الانسان وكرامته وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس فى ظلال اخاء شامل وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية السامية .

فان واقع الأمر يبين لنا أن الحضارة الاسلامية استمدت مقوماتها وعناصر وجوها من الاسلام ذاته .

وإذا كان ظهور الاسلام قد سبقه فى جزيرة العرب وما جاورها حضارات أقدم منه كما سبقه أيضا فى البـــلاد التى انتشر فيها الوان من الحضارات القديمة مثل الحضارة المصرية والاشورية والبابلية والاغريقية .

فان الاسلام استطاع ان يضفى على البلاد التى شملها لونا مشتركا من الفكر الدينى والحياة والمعـــاملات والعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك بين المسلمين فى مختلف الأقطار وبلاد الدنيا.

وهذه الحضارة الاسلامية تمتاز بأن كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحى رسالة السماء التى تمدها بالروح والقوة والتماسك وتوجهها الى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل وعن المادية الجامدة المفسدة.

فهى فى نظام عقيدتها تقوم على توحيد الله وافراده بالعبادة والتعظيم والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة.

وهى فى نظامها السياسى تقوم على الشورى والنزول على رأى الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الانسان والتزود بكل أسباب القوة والعزة.

وفى نظامها الأخلاقى تقوم على خلوص النية ونقاء الضمير والتمسك بقيم الخير والحق والتزام الاداب الفردية والاجتماعية التى تسير بالبشرية الى الكمال والسلام.

وفى نظامها الاجتماعى تقوم على الأسرة المتماسكة القائمة على أساس من المودة والرحمة والاخلاص وتعاون المواطنين على الخير والبر وقيام كل راع بمسئوليته.

وفى نظامها الاقتصادى تقوم على تبادل المنافع واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية.

وفى نظامها التشريعى تقوم على أصول رئيسية واسعة وقد تمثلت هذه

الناحية فى ثروة من الفقه الاسلامى تجلت فيها عبقرية الحضارة الإسلامية وتمثلت فيها حرية الاجتهاد الفكرى والعمل الموسوعى .

وفى نظامها الثقافى تعتمد على طلب المعرفة من كل طلب ممكن ومن أى مكان واستخدام العقل فى كسب المعارف وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة واعتبار الثقافة ايا كان مصدرها ومهدها تراثا عاما للانسانية . ونستطيع ان نصل الى أن الحضارة الاسلامية.

— وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الاقدمين وما أضافت اليه من صنع عبقريتها المبدعة .

— انقذت العالم القديم مما كان يعيش فيه من فرضى وانهيار واضطراب فى الحضارة واستعباد وظلم اجتماعى .

— أعطت العالم حضارة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد فى اسمى صورها وأصفاها ، ومجتمعا جديدا يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمى بين الجميع .

— أعطت الانسانية ذخيرة ضخمة من المعارف أفادمنها الغرب فى عصر الاحياء والنهضة واعتمد عليها العالم الاسلامى فى يقظته الحديثة فى بناء نهضته المعاصرة .

— وضعت بعض أصول المنهج العلمى الحـــديث كطريقة الشك عند (الغزالى) كما فتحت آفاقا جديدة فى البحوث الإنسانية كفلسفة التاريخ عند (ابن خلدون) وعلم البصريات على يد (ابن الهيثم) وابتدأت مرحلة جديدة فى تطور علوم الرياضة على يد (الخوارزمى) .

— ساعدت بآدابها على نهضة الآداب فى أوربا وفتح آفاق جديدة لعام شعراء الغرب وكتابه .

— ساعد خلفاؤها وقادتها بسلوكهم الأخلاق وبنماذج المروءة والشرف التى تحلوا بها على اشاعة المثل الأخلاقية الرفيعة مما كان قدوة لمن احتك بهم فى السلم أو فى الحرب .

ان من يمعن النظر ، فى أعماق الحضارة الاسلامية . وما حققته للانسانية من أسباب النمو ، وعوامل الازدهار ، ويلم بما جاء به الفكر الاسلامى ، من مفاهيم تناولت أهم معضلات الحياة .

ان من يتعمق فى ذلك ، يدهشه مدى عمق التفكير الواعى ، الذى بلغ ذروته علماء الاسلام ، ويتضاعف اعجاب الباحث بهذا الفيض الزاخر من الجهود العلمية العظيمة التى ملأت الدنيا .

وتزداد دهشة المفكر ، ويتعاظم تعجبه ، لحركة التحول الخطيرة التى أصابت المجتمع العربى فى تلك الفترة القصيرة .

ترى ، أى سر هذا الذى استطاع أن يحول عرب الصحراء ، الى أساطين فى العلم ، ومشاعل فى الحضارة ، وأفذاذ فى المعرفة ، ومنارات فى الثقافة ؟ وأى قوة رفعت العرب من حال البداوة التى كانوا عليها ، الى أبطال وقادة ، غير هيابين ولا وجلين ؟ .

وترى ، كيف نفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء ، الى الحضارة العلياء ، فى أقل مدة عرفتها الانسانية ؟ .

تقول الكاتبة الالمانية الدكتورة (سيجريد هونكه) : ان هذه الطفرة العلمية الجبارة ، التى نهض بها أبناء الصحراء ، من العدم ، من أعجب النهضات العلمية الحقيقية ، فى تاريخ العقل البشرى .

وليس من المعقول فى نظر المفكر ، والباحث ، والدارس ، أن يظفر الفكر العربى الذى قيدته ظروف الحياة القبلية الآسنة اليبوس ، الى مثل

هذه المرتبة العالية ، دون أن تكون هناك الأسباب القوية التى دفعت به الى الحياة المتحركة دفعا .

ومن المسلم به ، أنه لم تظهر قبل الاسلام ، أية دلائل على التطور الفكرى من العرب المنتشرين فى الجزيرة العربية ، وكان الشعر ، والخطابة والتنجيم أحب شىء الى عرب الجاهلية .. اذن ، ماهى تلك الأسباب التى استقى منها الفكر العربى ، مادة حيويته ، وتطوره ؟ وما هى الموارد التى نهل منها أسباب تكامله وقوته ؟ .

ان المنبع الأول والأصيل فى كل ذلك ، هو : القرآن الكريم ، وذلك أن القرآن ، لم يكن كتاب دين يحث على العبادة فحسب ، وانما كان الى جانب تأكيد وحدانية الله ، وما يتبعه من عقائد ، وعبادات ، وأوامر ونواهى كان من أعظم الدساتير التى عرفتها الانسانية ، فى تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن ، وذلك بما تضمنه من القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الانسانى الصالح .

ولقد كان أول أثر من آثار القرآن فى الفكر الانسانى ، اهتمامه الواسع بالعلم ، وذلك أن العلم أساس التقدم والتعاون ، وتبادل الخبرات والمنفعة ، وقد كانت عناية القرآن بالعلم ، تفوق حد الوصف .

تأمل القرآن وتدبر آياته ، تجده يدعو الى تحكيم العقل والمنطق ، فى مظاهر الكون ، وأحداث الماضى .

ولقد اشتمل القرآن على ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية : منها سبعمائة وخمسون آية كونية وعلمية ، احتوت أصولا وحقائق تتصل بعلوم الفلك والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، والأحياء ، والنبات ، والحيوان ، وطبقات الأرض ، والأجنة ، والوراثة والصحة ، والصحة الوقائية ، والتعدين والصناعة ، والتجارة ، والمال ، والاقتصاد ..

إلى غير ذلك من أمور الحياة . . واحتوت باقى الآيات على الأصول ، والأحكام فى المعاملات ، وعلاقات الأمم والشعوب ، فى السلم والحرب ، وفى سياسة الحكم وإقامة العدل ، والعدالة الاجتماعية . . وكل ما يتصل ببناء المجتمع .

وهذا كله بخلاف العبادات ، والعقائد ، والتكاليف ، والقصص ، والمواعظ ، والأمثال ، وغير ذلك من شتى أمور الدين والدنيا . مما كان محلا للدراسة والاستنتاج ، والتخريج ، والتأمل ، والبحث ، والتنقيب . . وكان أساسا لعلوم الفقه ، والتفسير ، والحديث والأصول ، والأخلاق ، والبلاغة ، والنحو ، والأدب . . ذلك أن القرآن من العمق : والاتساع ، والعموم ، والشمول . . بما يقبل تفهم البشر له . أيا كان مبلغهم من العلم ، وبما يفى بحاجاتهم فى كل عصر ، ويتجاوب مع أهل البداوة فى يسر ، ويبهر فى عمقه أهل الحضارة الذين صعدوا فى سلم الرقى وبرعوا فى فنون العلم والمعرفة .

كرم الإسلام العلم ، وحث المسلمين على المزيد فيه ، والاستفادة منه ، لأنه ينير العقول المظلمة ، ويحيى القلوب الميتة ، ويهدى النفوس الحائرة ، ويرقى بالمجتمعات الإنسانية ، ويسمو بالقواعد الحضارية . وقد كانت عناية الإسلام بالعلم تفوق حد الوصف . حتى أن كلمة العلم بجميع تصريفاتها ، واشتقاقاتها ترد فى أكثر من خمسمائة آية من آيات القرآن الكريم . وهذا ينبىء عن مكانة العلم فى الإسلام .

والقرآن الكريم نفسه مشتق من القراءة ، والقراءة مفتاح هائل من مفاتيح العلم للإنسان ، وطريق دائم للمعرفة ، والإنسان مهما كان ضعيف العلم والثقافة فإنه إلى نمو فى الثقافة والعلم مادام يقرأ . . وأول ما نزل على محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام : من وحى السماء ، عندما كان يتحنث فى غار حراء ، خمس آيات من القرآن الكريم ، هى قوله تعالى فى سورة العلق :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم »

ففى هذه الآيات الخمس ، بدأ الوحى الإلهى بالقراءة فى أول آية ، وكان ذلك بصيغة فعل الأمر . وقد تكرر الأمر بالقراءة فى الآية الثالثة ، وأوضحها مؤكدا مارمى إليه من معنى . وهو التعليم ، وزاد التأكيد بذكر القلم .

« والتعليم بالقلم من أعظم نعم الله على عباده ، إذ به تخلد العلوم ، وتثبت الحقوق ، وتعلم الوصايا ، وتحفظ الشهادات ، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبذا تفيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين . ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن ، وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . . وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم ودنياهم ، إنما يعتريهم من النسيان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا من الضياع . كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان . فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم ، والتعليم به كذلك » .

وقال تعالى : فى سورة القلم : « ن والقلم ومايسطرون » فالله يقسم بالقلم والكتب ، فتحا لباب التعليم بهما ، ولا يقسم الله إلا بالأمور العظام ، فإذا أقسم بالشمس والقمر ، والليل والفجر ، فإنما ذلك لعظمة الخلق ، وجمال الصنع ، وإذا أقسم بالقلم والكتب ، فإنما ذلك ليعم العلم والعرفان وبه تهذب النفوس ، وترقى شئوننا الاجتماعية والعمرانية .

وما أروع لفظ (وما يسطرون) حيث يشمل كل فنون الكتابة والتعبير عما فى الضمير بالرسم والتصوير . ويشمل كل آلة أو نظام استحدث للتوصل إلى ذلك من آلات ومعدات حدثت أو ستحدث . . » .

فانسانية الإنسان لا تكمل إلا فى ظل المعرفة الصادقة ، والعلم البناء المثمر الذى يوضح المعالم ، ويهدى إلى الرشاد ، قال على رضى الله عنه :

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهم
على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا
الناس موتى وأهل العلم أحياء

والإسلام يحض المسلمين على طلب العلم ، والتفقه فى الدين ، والبحث الدقيق فى كل مجالاته وفنونه ، وفروعه ، وأن يتحملوا المشاق فى سبيل تعلمه وتحصيله ، وأن يبذلوا كل طاقاتهم فى طلب المزيد منه ، وأن يتعلموا كل ما ينفعهم فى دينهم ، ودنياهم ، وكل ما يعود عليهم وعلى الأمة الإسلامية ، والمجتمعات الإنسانية بالخير والرقى .

قال تعالى فى سورة التوبة : «وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » :

فهذه الآية الكريمة تشير إلى ان تعلم العلم أمر واجب على الأمة جميعا وجوبا لا يقل عن وجوب الجهاد والدفاع عن العقيدة والوطن الإسلامى . فإن الوطن يحتاج إلى من يناضل عنه بالسيف ، وإلى من يناضل عنه بالحجة والبرهان .

وفى الآية — كما جاء فى تفسير المراغى — إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه فى مواطن الإقامة ، وتفقيه الناس فيه

بالمقدار الذى تصلح به حالهم ، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه ، على هذا القصد ، لهم عند الله من سامى المراتب مالا يقل فى الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس ، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والذود عن الدين والملة بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

روى البخارى ، ومسلم وابن ماجة ، عن معاوية رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » :

وروى أحمد والطبرانى عن صفوان بن عسال المرادى ، قال : أتيت النبى عليه الصلاة السلام : وهو فى المسجد متكىء على برد له أحمر ، فقلت له يارسول الله إنى جئت أطلب العلم ، فقال : (مرحبا بطالب العلم ، أن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب) .

وروى ابن ماجه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة) :

وروى الترمذى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع) :

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : (تعلموا العلم . فإن تعلمه لله حشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة . لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل

أهل الجنة ، وهو الانيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الاعداء ، والزين عند الاخلاء . .)

وانطلاقا من تعاليم الاسلام ، ودعوته إلى العلم . أدرك المسلمون بلغ الحاجة إليه فى بناء المجتمع ، ودعم مراكز الأمة . لهذا وجهوا العزائم إلى طلب العلوم على اختلاف أنواعها ولم يشغلهم عن طلبها ترف الحضارة . ولم يثن عزائمهم عنها بأساء الحياة وضراوتها ، وبحثوا عنها فى آيات الله التشريعية ، وآيات الله الكونية ، وأقاموا لها فى كل مدينة منارا عاليا ، وحملوا المشاعل المضيئة إلى مشارق الأرض ومغاربها . ولم يقف المسلمون بجهودهم عند نتاج عقولهم وأفهامهم .

بل اتجهوا أيضاً إلى علوم السابقين ، يدرسون ويبحثون ، فاستخرجوا العلوم من زوايا الاهمال والنسيان . وكانوا يطلبون العلوم طلب الناقد البصير ، واكتمل لهم من ملكة العلوم والفنون فى جيل واحد مالم يكتمل لأمة من الأمم الناهضة فى عدة أجيال وفى ذلك يقول بعض العلماء المؤرخين : (أن ملكة الفنون لم يتم تكوينها فى أمة من الامم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال والاجتهاد . إلا العرب وحدهم فقد استكملت لهم ملكة الفنون فى الجيل الاول الذى بدأوا فيه بمزاولتها) . وتقول الكاتبة الالمانية الدكتورة سيجريد هونكه فى كتابها المسمى (شمس الله تشرق على الغرب) : أن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى ، فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة ، وحيدة فى نوعها . وان الانسان ليقف حائرا أمام هذه الحضارة العقلية الجبارة التى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها » .

وقد قام العلماء والمفكرون المسلمون بهذه النهضة العلمية التى تخطت

مراحل النهوض فى الامم . قاموا بها على رغم الاحداث العاتية التى حملوا أعباءها ، والحروب الطاحنة التى خاضوا غمارها ، لأن الاحداث والحروب وإن بلغت من العنف مابلغت لاتستطيع أن تقف فى طريق العقيدة الصحيحة التى انطوت عليها القلوب ، وتفاعلت بها النفوس . ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول إلى تحقيق أغراضها وأهدافها .

واستطاع المسلمون فى سرعة لم يعهد لها مثيل فى تاريخ الحضارة ، أن ينتقلوا من أمة الامية إلى أمة العلم ، و"قيادة الفكرية ، وأن يصبحوا قادة الفكر ، وروادا — للمعرفة والعلوم والفنون ، يدرسونها للأجيال المعاصرة كأحسن ما يكون التدريس والتعليم ، وينشرونها فى شعوب كانت تائهة فى عماء الجهل وظلمته ، ويدونونها الأجيال المقبلة كأحسن ما يكون التدوين والتأليف .

وإن الامة التى أكرمها الله بالقرآن، تتطلع إلى غد مشرق بالعلم والحضارة، وخير للأمة أن تعمل فى حزم وعزم ، لتحقق الامجاد وتسعد الافراد والجماعات .

نصرة المظلوم

يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره » رواه الشيخ عن ابن عباس والطبرانى عن أبى الدرداء .